

التصوف بين الرؤية التاريخية والواقع الأدبي في المغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط

The mysticism between the historical vision and the literary reality in the Islamic Maghreb during the Middle Ages

د. بن سعيد بن ميرة
جامعة حسيبة بن بوعلي-الشلف
(الجزائر)
Benmirasaid02@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/06/01

تاريخ القبول: 2025/05/04

تاريخ الاستلام: 2024/09/07

ملخص:

مما لا ريب فيه أن التطرق لموضوع التصوف بعيون المؤرخين ورواد الأدب، لا يمكن طرحه إلا من خلال الدراسات البيئية، ذلك ان التصوف يعتبر ظاهرة دينية و إجتماعية وأدبية أثرت في المخيال الجمعي لسكان بلاد المغرب الإسلامي وصنعت أحداثاً تاريخية أفرزت من خلاله إرث ثقافي وديني وإجتماعي لاغنى عنه، ولأن القرآن والسنة النبوية هما المنبعان الرئيسيان للتصوف السني، فإنه استقطب مجالاً واسعاً من المادة الخيرية والإرث الثقافي والأدبي، ويبدو أن المؤثر الثقافي المشرقي والأندلسي قد ألقى بظلاله على بلاد المغرب الإسلامي في فترة مبكرة من العصر الوسيط محتزلاً البعد الجغرافي الطبيعي من خلال الرحلات التجارية والعلمية ورحلات الحج، فكان من نتائج ذلك انتقال التصوف من اقطار المشرق الى بلاد المغرب، فنشأ وترعرع ثم استقام بمضاربه وأثر زخم ادبي مازلنا ننهل منه الى يومنا هذا، وفي هذا الصدد سنحاول من خلال ورقة بحثنا هذه رفع اللثام على هذا الموروث التاريخي والأدبي ببلاد المغرب كما سنحاول تسليط الضوء عن الرؤية التاريخية للتصوف وأثره على الواقع الأدبي ببلاد المغرب الاسلامي.

الكلمات المفتاحية: التصوف؛ الرؤية التاريخية؛ الواقع الأدبي؛ المغرب الإسلامي؛ العصر الوسيط.

Abstract:

There is no doubt that addressing the subject of Sufism through the eyes of historians and pioneers of literature can only be put forward through internal studies, because Sufism is considered a religious, social and literary phenomenon that has influenced the collective imagination of the inhabitants of the Islamic Maghreb and created historical events that have produced an irreplaceable cultural, religious and social heritage, and because the Qur'an and the Sunnah of the prophet are the main sources of Sunni mysticism, it has attracted a wide field of the Levantine and Andalusian tradition cast a shadow over the Islamic Maghreb in the early period of the Middle Ages, reducing the natural geographical dimension through

commercial and scientific trips and trips In this regard, through this research paper, we will try to lift the veil on this historical and literary heritage in the Maghreb and we will try to shed light on the historical vision of Sufism and its impact on the literary reality in the Islamic Maghreb, as well as we will try to shed light on the historical vision of Sufism and its impact on the literary reality in the Islamic Maghreb.

Keywords: Mysticism; historical vision; literary reality; Islamic Maghreb; the Middle Ages.

. مقدمة:

يعدّ التصوف من أبرز التيارات الفكرية التي ظهرت مع نهاية القرن الأول الهجري ببلاد المشرق بشكل عام، وإن كان موضوع ضبط تاريخ بداية ظهوره ببلاد المغرب صعب كونه يعتبر ممارسة وقول، وعند الكلام عن تاريخ وواقع التصوف ببلاد المغرب الإسلامي نجد أن روافد التصوف كثيرة مثل الرحلات التجارية، ورحلات الحج، والرحلات العلمية، فكان من افرازات ذلك قدوم الفكر الصوفي إلى المغرب الإسلامي ومحاولات تقديمه، فعمد المتصوفة إلى الشعر والتأليف والتدريس والخطب كأساليب للتعبير عن التشيع الروحي بين المتصوف وربه معتمدين في ذلك على الانتقال من الواقع المادي إلى النهج الروحي وتزكية النفس.

ومن الجلي أن المشاركة قد سبقوا المغاربة في تبني التصوف وشاع عنهم أمره وبعدها جاء من سلك طريقهم من مريديه، فعرف بذلك التصوف امتداداً باتجاه بلاد المغرب الإسلامي مستقطباً مختلف الشرائح، وارتبط بحياة الأمة، وزادت مهام المتصوفة من مجال تعليم الناس أمور دينهم بغية العروج من مدارج الكمال إلى فعل التواصل الثقافي والأدبي وفق العبادة الصوفية، فتأثر الواقع الأدبي المغربي به وأثر فيه وكان من نتاج ذلك موروث أدبي زاخر جادت به حقبة التصوف ببلاد المغرب خلال العصر الوسيط.

1/ بداية ظهور التصوف:

إن المتتبع لحياة الإنسان يدرك جيداً أنها مبنية على القلق الوجودي والذي هو فطرة من الله تؤدي إلى تلاقي الأفكار وتقلبها طمعاً في الولوج إلى سر الوجود. ومن هنا يحدث الاختلاف الحتمي في تصورات البشر، والتي لم تعرف الثبات لاسيما مع مبعث الرسل والأنبياء لكل الناس، فكان الدين عماد الفكر البشري والمساهم الرئيسي في كل مقومات الحياة.

والتصوف هو أحد مظاهر الحياة الفكرية على اعتبار أنه ليس دين أو مذهب إنما هو منهج يسلكه المرید للوصول إلى الله عز وجل، في حين يرى معارضيه أنه سلوك محرم¹.

إن هذا الكلام يقودنا لتتبع البداية الأولى للحركة الصوفية، والتي تعد من الناحية التاريخية مقدمة ضرورية للتصوف وفي نفس الوقت اللبنة الأولى لوجوده في حياة الإنسان الفكرية والدينية، والقصد هنا حركة الزهد الأولى التي كانت بذورها منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، والتي نمت مع مرور الأيام حتى اكتملت معالمها نهاية القرن الثاني للهجرة، وذلك من خلال تقصي المرجعيات الفكرية والفلسفية مع وجوب التمييز دائماً بين ما نسميه بالزهد والتصوف.

وبالعودة الى ظهور التصوف في بلاد المغرب الاسلامي فإن العديد من المؤرخين يشيرون إلى أنه كان مع أوائل القرن الخامس الهجري²، وفي المقابل يشير البعض الآخر الى ظهوره خلال القرن السادس هجري³، وهذا رغم الظهور المبكر للتصوف في المشرق، والذي يبدو أن ظهوره كان مع نهاية القرن الاول وبداية القرن الثاني الهجريين⁴.

ومن هنا يظهر جلياً ارتباط ظهور التصوف ببلاد المغرب الاسلامي بتلك التأثيرات القادمة من بلاد المشرق وحتى الاندلس فيما بعد ، وذلك عن طريق روافد الأدب الصوفي لاسيما تأثير كتاب إحياء علوم الدين للغزالي⁵، الذي عرف انتشار كبير في بلاد المغرب وترك الاثر البالغ في ساكنته ،وقد مكّن هذا الكتاب من تبوأ التصوف مكانة مرموقة في الإسلام⁶، مما أسهم في تقريب الثقة بين التصوف والفقهاء⁷، لاسيما وأن فترة ظهوره عرفت أيضاً بسمو مكانة الفقهاء وسيطرتهم على النشاط الفكري⁸.

ومهما تعددت الآراء فإن مسألة ظهور التصوف لا يمكن اختزالها في هذه الآراء أو غيرها فقط إنما هي إفراز لعوامل كثيرة زاوجت بين كل ماهو اجتماعي وديني وسياسي وحتى اقتصادي.

وصفوة القول أن الحديث عن التصوف كواقع تاريخي وأثره الأدبي ببلاد المغرب الاسلامي خلال العصر الوسيط يجرنا للتكلم عن مبادئه وأشكاله في الحياة البشرية مع التركيز على التصوف الاسلامي الذي يعتبر من أبرز الافكار الحادثة على بلاد المغرب خلال فترة دراستنا هذه.

والجدير بالذكر ان التصوف اقترن أساساً بالدين الاسلامي كونه دين الحقيقة والنجاة والتصوف سبيل لمعرفة الحقيقة والوصول اليها عن طريق العبادات المعروفة في الدين⁹ ومن أجل رفع اللثام أكثر عن التصوف سنعرج لتعريفه اللغوي لإستقصاء التعريف الاصطلاحي.

2-تعريف التصوف

أ-التعريف اللغوي : إذا كان لفظ تصوف وصوفي بشكل عام من الألفاظ الشائعة ،فإن التصوف كعلم أو كسلوك لم يكن موضع اتفاق او تعريف موحد بين المؤرخين والمجتهدين في مجال التصوف على الأقل ،حيث ذهب ابو القاسم القشيري الى فرضية عدم وجود اشتقاق لكلمة التصوف في اللغة العربية¹⁰، ومما عقد هذا الطرح هو عدم ورود هذا اللفظ في كتاب الله ولا في حديث رسوله صلى الله عليه وسلم¹¹.

وبالرجوع للمعنى اللغوي للتصوف، نجد كلمته مشتقة من كلمة صوف، والجمع أصواف ، والصوف كل من أولى شيئاً من عمل البيت وصاف عنا شرّه يصوف، عدل¹²، وتصوف جاءت أيضاً بمعنى تنسك أو ادعاه¹³، وجاء ايضاً تصوف، يتصوف تصوفاً، فهو متصوف، تصوف الشخص ،صار صوفياً، واتبع سلوك الصوفية وحالاتهم ،لبس الصوف¹⁴.

ب-التعريف الاصطلاحي : أخذت تعريفات معنى مصطلح التصوف الكثير من التخریجات التي وضعها أئمة التصوف الأوائل ،إذ احصى له الباحثون ما يربو على 60 تعريفاً تصب كلها في قالب واحد وهو أن التصوف طريقة لعبادة الله

سبحانه وتعالى وعزوف عن الدنيا¹⁵ ومجاهدة للنفس ومغالبة للأهواء وإثبات لما يبقى على ما يغني وتدريب للنفس على العبودية لله وردها الأحكام الربوبية¹⁶.

ولعل أفضل تعريف للتصوف هو ما جاء على لسان مردييه أنفسهم حين سئل أحد رواد الصوفية عن معنى التصوف فأجاب بقوله " ..معناه أن العبد إذا تحقق واتصف بشهود حقائق الربوبية صفا من كدر البشرية فنزل منازل الحقيقة، واخذ مكارم الشريعة، فإذا فعل فهو صوفي"¹⁷.

أولاً: نشأة التصوف وعوامل تطوره ببلاد المغرب الإسلامي:

إن المتتبع إلى تاريخ التصوف الإسلامي سيدرك دون شك أن انتشار التصوف ببلاد المغرب يعتبر قرينة قوية على وجود أرضية تشبه إلى حد كبير المناخ الذي نشأ فيه التصوف بالشرق وهذا ما يدفعنا إلى القول أن ظهور التصوف ببلاد المغرب كان نتيجة عدة مسببات إجتماعية ودينية وسياسية وإقتصادية تراكمت منذ القرن الثالث الهجري ونضجت في القرن السادس بالنسبة للتصوف السني والقرن السابع بالنسبة للتصوف الفلسفي¹⁸.

وصفوة القول أنه قد تداخلت العديد من العوامل الداخلية والخارجية التي أدت في النهاية إلى انتقال التصوف من بلاد المشرق إلى مضارب بلاد المغرب الإسلامي ومن أبرز هذه المسببات والعوامل مايلي:

1- ولوج أفكار التصوف الزهدي إلى بلاد المغرب الإسلامي:

عرف الزهد تطور في بلاد المغرب الإسلامي ويبدو أن هذا التطور كان هو الممهد الحقيقي لظهور التصوف على نحو ماحدث في بلاد المشرق الإسلامي، ورغم أن تحديد الإطار الزمني لظهور الزهد ببلاد المغرب لا يقل صعوبة عن رصد بدايته في المشرق إلا أن الأكيد أن مظاهر الزهد عرفت على قادة الفتح الإسلامي لبلاد المغرب الأولين، ثم برز بعدها زهاد آخرون انتشرت أخبارهم في مضارب وبطون القبائل منهما أبو عيسى مروان اليحصبي الذي أعتبر من أوائل عباد المغرب¹⁹، والزاهد وهب بن منية وهو من الصلحاء الذين دفنوا بتلمسان²⁰ وأبوسليمان داوود بن يحيى (ت249هـ) الملقب بأول متصوف ببلاد المغرب الإسلامي²¹ وسحنون بن حبيب التنوحي (ت240هـ) بإفريقية²².

2- تأثير الرباط:

تباين تاريخ ظهور الرباط بين مضارب بلاد المغرب الإسلامي، ففي الوقت الذي كان ظهوره مبكراً بإفريقية مثل (رباط المنستير) خلال القرن الثاني للهجرة²³، في حين تأخر ظهوره بمضارب المغرب الأوسط إلى ما بعد القرن الخامس الهجري²⁴.

والجدير بالذكر أن الرباط كان بمثابة المدرسة لمريدي مبادئ التصوف، وأفضل قرينة على ذلك رباط زهون الذي عكف عليه طلاب التصوف ينهلون من علم شيخهم أبي عبد الله موسى الأركاتي (ت590هـ)²⁵.

لقد عرف الرباط في مجال نشاطه عدة تطورات، ليتحول مع مرور الزمن إلى ملاذ لكل المتصوفة للتزود من مناهل الزهد والأدكار حتى وصفت الحركة الصوفية بأنها ثمرة لعمل الرباط²⁶.

وبالمقابل فإن سواحل بلاد المغرب الاسلامي كانت عرضة للهجمات التي كان يشنها النصارى عليها مما أدى الى وجوب أن يحصن المسلمون ثغورهم، فنشطت حركة الجهاد البحري، وهكذا اضيفت مهام اخرى للرباط تمثلت في توظيفه في الجهاد ضد أعداء الاسلام.

والملاحظ أن ظهور الارتبطة قد تضاعف بأعداد كبيرة على سواحل بلاد المغرب مقترن بخطر الغارات البحرية النصرانية، هذا ما جعل من مكانة الارتبطة تتطور الى ان اصبحت ينسب اليها تسميات مشائخ الزهاد والمتصوفة، وقرينة ذلك نسب اسم المتصوف أبو عمر وبشير بن عبدوس المنستيري نسبة لرباط المنستير²⁷.

والجدير بالذكر أن المتبع لهذا التطور سيدرك دون شك أسباب أهمية الرباط في نشر التصوف ببلاد المغرب، ذلك أن المتصوفة والذين اعتكفوا بالارتبطة أعطوا صورة أقنعت الكثير من المغاربة بأن يجعلوهم قدوة، لاسيما وأن المتصوفة زهدوا في اللباس والطعام واثروا العبادة والجهاد في سبيل الله فكانوا نموذج لكل المغاربة.

وصفوة القول أن الارتبطة كانت بمثابة المدرسة الحقيقية لمريدي الصوفية، فضلاً عن المهام الأخرى كمهام حماية الثغور من الهجمات النصرانية المتحرشة بأراضي المسلمين، ولم تقتف الارتبطة بالمهام الجهادية هذه فقط بل تكلفت أيضاً بالمهام الارشادية والتربوية والدينية.

3-المصنفات الصوفية:

لاريب أن التصوف قد نشأ وتطورت تياراته في بلاد المشرق بداية من القرن الثاني للهجرة كما ذكرنا سابقاً، وبلاد المغرب الاسلامي كغيرها من الأقطار لم تكن بمعزل عما يجري بالمشرق بحكم الحركة الدائمة بين المغرب وبلاد المشرق، فكانت دواعي الحج والرحلات العلمية والتجارية وغيرها عوامل كلها داعمة لتواصل فقهاء وعلماء وحتى عامة الساكنة ببلاد المغرب الاسلامي مع قرينتها ببلاد المشرق، مما سهل فرص لقاءهم بكبار العلماء والفقهاء بالمشرق، فأخذوا عنهم وجلبوا أفكارهم إلى بلاد المغرب²⁸.

لقد شكلت هذه الرحلات إلى المشرق منطلقاً لانتقال مختلف المصنفات الصوفية المشرقية إلى مجالات بلاد المغرب الإسلامي، ومن دلائل ذلك أنتشار مصنفات أبي بكر محمد المطوعي النيسبوري (ت435هـ)، وكتاب قوت القلوب لأبي طالب محمد بن علي المكي (ت القرن الثالث الهجري) على يد أبي بكر محمد القرشي²⁹.

والجدير بالذكر أن كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي (ت505هـ)³⁰ قد أخذ حيز كبير من اهتمام عامة سكان بلاد المغرب، فضلاً عن الرسالة القشيرية، لأبي القاسم القشيري (ت 465هـ) والمصنفات الصوفية الإستشراقية مثل كتاب الإشارات والتنبيهات لابن سينا³¹.

والملاحظ أن هذا الزخم الكبير المرافق لانتشار مختلف المصنفات الصوفية ببلاد المغرب، قد أدى الى تلاقي الأفكار بين ما جادت به هذه الكتب وبين أفكار علماء المغرب فظهر جيل جديد من العلماء المغاربة المتصوفة الذين أسهموا في نشر التصوف من خلال ما ألفوه من كتب تخص هذا المجال، والأمثلة كثيرة في هذا منها كتاب المواعظ والرفائق³²، والذي

عرف رواجاً كبيراً عند السواد الأعظم من المتصوفة ببلاد المغرب الإسلامي³³، وكتاب أبو محمد صالح الماجري (ت631هـ) الذي شرح فيه الرسالة القشيرية³⁴.

ثانياً : تأثير التصوف على الواقع الأدبي في بلاد المغرب:

1/ علاقة التصوف بالشعر : عمد المتصوفة الى استخدام الشعر كوسيلة في معالجة مختلف الظواهر الكونية، فضلاً عن التعبير عن أحوالهم وتجربتهم الروحية التي يمارسونها، وربما هذا ما أدى الى تنوع الشعر الصوفي بين الشعر الصوفي الفلسفي والشعر الصوفي السني، وكان لهذا التنوع أن أفرز جملة من المصطلحات والرموز التي يصعب فهمها ويكاد لا يصل الى جوهرها عالم أو حالم³⁵ جعلت من المتصوف يرحل بخياله عن الأرض ويتصل بالسماء³⁶.

أ-مراحل تطور علاقة التصوف بالشعر : مرّ الشعر العربي عبر مسيرته بمختلف الملامح الفنية التي عمدت إلى تجديده واثرائه، ويعتبر التصوف من أهم هذه الملامح، ذلك أن الشعر إقترن بالأدب الصوفي عبر عدة مراحل منذ ظهور الإسلام إلى أواسط القرن الثاني للهجرة كمرحلة أولى.

والجدير بالذكر أن هذه المرحلة تعتبر مرحلة تمهيدية تميزت ببروز الأدب الصوفي الذي عرف بالسمو والمواظ والأخلاق في طرجه ودعا الى الزهد والورع.

وعلى العموم يصور لنا الأدب الصوفي في هذه المرحلة تلك البساطة والخيرة والورع³⁷.

أما المرحلة الثانية فتبدأ من أواسط القرن الثاني الهجري الى مشارف القرن الرابع للهجرة، وأهم ما ميز هذه المرحلة هو بروز ذلك التلاقح الفكري بين الجنس العربي مع مختلف الأجناس الأخرى، حيث كانت هذه المرحلة قد بدأ فيها الإستقرار العقائدي في النفوس بعد أن إشتد أثر علم الكلام على النفوس وبروز علم الفلسفة

وإذا أردنا أن نعرف بشكل عام ماميّ المرحلتين الأولى والثانية، نجد أنه غلب عليهما النثر والشعر وإن كان الشعر الصوفي قد ظهر لكن على إستحياء، وفي الوقت نفسه بدأت تتكون المصطلحات الصوفية والشطحات³⁸.

والملاحظ أن الأدب الصوفي والى غاية نهاية النصف الأول من القرن (6هـ/12م) ببلاد المغرب الإسلامي، لم يعرف ذلك الزخم الكبير الذي عرفه المشرق، لكن بداية من منتصف القرن السادس عرف الرقي في نصوصه المنظومة والنثرية بفعل الاحتكاك بالمصنفات الصوفية القادمة من الاندلس والمشرق³⁹، وما استمدته بالذات من حواضر قرطبة والبصرة وبغداد والحجاز ومدينة القيروان قبل أن تخرب على يد القبائل العربية الهلالية .

وهكذا عرفت المرحلة الثالثة العصر الذهبي في الشعر الصوفي الذي بلغ ذروته مع ابن العربي وابن الفارض وجلال الدين الرومي وانتقل لبلاد المغرب الإسلامي ليكون بذلك الشعر الصوفي أحد أهم منجزات المتصوفة ببلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، حيث جمعوا بين التصوف كمنهج والشعر كفن وكلاهما يحيل الى العاطفة والوجدان⁴⁰، فأصبح واقع الحال يلح على أي متصوف لبس عباءة الشاعر لأنها وسيلة لإدراك ما عنده ولا يتأتى ذلك الا من خلال وسيلة الشاعر نفسه⁴¹.

إن هذا التوجه يؤكد بصفة قطعية الطرح الذي يؤكد أنه لا يمكن للشاعر أن يكون عظيماً إلا إذا رأيناه وراءه رؤيا للعالم⁴²، ومن قلب هذه العلاقة الخصبة بين الشعور الانساني والمنهج الوجودي المطلق يتكون ذلك الرصيد التراثي في الثقافة الانسانية من ابداع يدفعا الى الحقيقة⁴³.

ب- أبرز الشعراء المتصوفة ببلاد المغرب الاسلامي في العصر الوسيط:

لقد عاش الصوفيون بشكل عام في عالم روحي حادث يختلف عن ماهو معهود عند عامة الناس، ليترب عن ذلك ظهور مصطلحات وألفاظ خاصة بهم للتعبير، ولعل هذا ما يفسر عدم اقتصار تداول الشعر على الشعراء فقط في بلاد المغرب الإسلامي لاسيما خلال الفترة المتأخرة من العصور الوسطى، كون أن الشعر استعمله المتصوفة من أجل الذود عن مذاهبهم الصوفية وفي الوقت نفسه استعملوه كوسيلة لإسكات معارضهم من الفقهاء أو حتى أصحاب السلطان واثروا الزهد في الفعل والقول.

إن المتتبع لهذه الحقبة يلحظ دون شك العديد من الشعراء الصوفية الذين أصبح لهم باع في هذا الشأن والقائمة تطول بذكرهم لكن نذكر بعضهم مثل الشاعر الصوفي ابن عربي الذي دعا الى الإستغناء بالله عن المال⁴⁴ ونجد الشاعر الصوفي بن العريف المعروف بأشعاره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم⁴⁵، والشاعر الزاهد المتصوف سحنون بن حبيب التنوخي (ت240هـ)، والذي كانت أشعاره موجهة لتهديب النفوس والتذكير بيوم الحساب⁴⁶.

ومن الشعراء الصوفية الذين جعلوا من السفر وسيلة لدفع الكذب ومن يخالف الدين، الشاعر أحمد بن نصر الداودي المسيلي (ت402هـ)⁴⁷.

والجدير بالذكر أن حقل الشعر الصوفي تلقى جرعة كبيرة على يد الشاعر أبو عمران المازتلي والذي وصف بوافر الشعر و الأدب⁴⁸، وغيرهم من الشعراء الذين يصعب جرد أسماءهم كلهم.

2/ اسهامات الحركة الصوفية في مجال التعليم:

أ- دورهم في التدريس: لقد عمل الفاتحون منذ الوهلة الاولى من الفتح على تعليم القران لسكان بلاد المغرب وتفقيهم في الدين، ولم يقتصر هذا الجهد على مضارب دون غيرها بل وصلوا به الى المغرب الأقصى⁴⁹.

والجدير بالذكر أن اللغة العربية كانت مرادفة للقران الكريم، لذا عمد الفاتحون من أمثال أسد بن الفرات على تعليم الناس القراءة والكتابة العربيتين⁵⁰، وكانت البداية بتعليم القران والشرعية والفرائض والأحكام.

وبنهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجريين، أصبح للتعليم أوقاف كالمساجد والأربطة والزوايا والكتاتيب، ورغم سيطرة الدويلات المستقلة ببلاد المغرب الاسلامي على سياسة التعليم ومناهجه، إلا أن الصوفية رفعوا لواء نشر العلوم والفكر الصوفي حتى بالسجون، ونجحوا في إيصال التعليم لموريديه مجانياً⁵¹.

إن المتتبع لنشاط الزوايا أثناء هذه الحقبة سيلحظ دون شك ذلك الاسهام الكبير للزوايا في تنشيط الحركة الصوفية فيما تعلق بمسألة نشر التعليم ببلاد المغرب الاسلامي وهو مايفسر ملازمة كتب الصوفية لكتب التفسير والحديث في

التدريس، وهذا ماتفطن إليه المتصوفة وعكفوا عليه، والأمثلة كثيرة في هذا السياق ويكفي ذكر الشيخ أبا محمد الأغزاوي الصوفي (ت769هـ) كنموذج لباقي المتصوفة⁵².

لقد كان للمتصوفة دور كبير في تدريس المصنفات وبلورة المخيال الجمعي لسكان بلاد المغرب وذلك من خلال وفرة انتاجهم الادبي المدرس في كل مضارب وبطون قبائل بلاد المغرب، وبهذا نجحوا في تشكيل تيارات صوفية لم تكن معروفة من قبل⁵³، كإتجاه وحدة الوجود في المغرب الأوسط⁵⁴.

والجدير بالذكر أن مهنة التدريس مع مرور الوقت أصبحت مهنة للعديد من المتصوفة وداوموا عليها، فهاهو الفقيه أبو عبد الله التاودي الفاسي قد امتهن التدريس، وقرينتنا على ذلك أخذه أجر مقابل تدريس أبناء الأغنياء دون الفقراء⁵⁵، بل واصبح التدريس بخص مدارس الدولة مثل المدرسة العنانية بفاس وغيرها.

ب- أبرز المدرسين المتصوفة ببلاد المغرب:

مما لا شك فيه أن التصوف قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً بتدريس مريديه، ولعل هذا الاهتمام لم يخرج عن قاعدة هذا الطرح عند المشاركة، كون أن العديد من طرائق التدريس قد انتقل تأثيرها الى المغرب الاسلامي عن طريق التصوف نفسه وهو ما اعتمد عليه المتصوفة كوسيلة يعبرون من خلالها عن مبادئ التصوف حسب طبيعة نوع مذهب المتصوف سني أو فلسفي.

وبالعودة إلى ذكر أهم المدرسين الصوفيين ببلاد المغرب نجد المدرس الصوفي أبو الحسن المفسر(ت577هـ) المراكشي والذي عرف بتدريسه تفسير القرآن⁵⁶، وصاحب المجالس التعليمية العامة حول دروس مناقب المتصوفة والزهاد الشيخ ابي مدين شعيب (ت594هـ)⁵⁷، كما كان له الفضل بعد الله في تدريس الرسالة القشيرية والتعريف بها⁵⁸، فضلاً عن مجالس ابن الحجام(ت614هـ)، وولع الناس بحجته وعلمه⁵⁹، دون نسيان الشيخ عبد السلام المحاسبي الصوفي منشط حلقات الدرس بحاضرة تلمسان⁶⁰.

إن مسألة ذكر أهم المتصوفة في بلاد المغرب الاسلامي الذين اهتموا بمجال التعليم يصعب رصددهم، ذلك أنهم كثر، لاسيما وأنهم أخذوا على عاتقهم قضية اخراج التعليم من طوق وصاية السلطة حفاظاً على التعليم من شوائب السياسة وفي الوقت نفسه من أجل تبليغ رسالة المتصوفة دون ضغوط من خلال تلقين مختلف العلوم العقلية والنقلية على مدار القرون الوسطى

ومن أجل تحقيق هذه الاهداف السامية لهم، عمدوا الى استهداف ثلاثة فئات من التعليم وهي الأطفال، الطلبة، والطبقة العامة.

ج- الاهتمام باللغة في التدريس : لقد لجأ المتصوفة عند تعبيرهم على تجاربهم وأفكارهم الى استخدام ألفاظاً ورموز خاصة بمخياهم الجمعي، ذلك أن يستعملون لغات أقوام البلدان التي سكنوها من خلال التعبير على كل ماهو ملموس ومحسوس، ثم استعملوا المصطلحات والرموز الصوفية، دون أن يهتموا المعاني الصوفية التي لا تدخل ضمن نطاق المحسوس

وهذا ما أشار إليه أبو حامد الغزالي حين قال "لا يحاول معبر أن يعبر عن الحقيقة الصوفية إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكن الاحتراز عنه"⁶¹.

والملاحظ أن كل هذا قد أسهم بشكل أو بآخر في اهتمام صوفية بلاد المغرب باللغة العربية وبالغوا في هذا حتى أصبح يطلق عليهم كنية اللغوي والنحوي⁶²، وبهذا أصبح كلامهم موزون وخالي من الشوائب على حد وصف صاحب المقدمة ابن خلدون⁶³، حتى لقب أبو عمران الماريتي بـ "أفر الأدب"⁶⁴، فأصبح المتصوفة يستعملون المجاز والتشبيه عند كل عجز في اللغة حين يريدون التعبير عن المعاني التي يريدونها⁶⁵، وبهذا ساهمت اللغة في تسهيل عمل المتصوفة في تدريس ادبهم لمريديهم ومن أفضل قرائن ذلك هو امتحان الشيخ المتصوف أبو يعزي تدريس النحو في مجالسه⁶⁶.

والجدير بالذكر أن المتصوفة عملوا على إتقان اللغة في تبليغ خطبهم من أجل استمالة عامة سكان بلاد المغرب، فاستعملوا اللغة الأقرب للفهم واتباعوا البلاغة حتى أنهم استعملوا اللغة البربرية في خطبهم لتسهيل الفهم على الحاضرين⁶⁷، ولعل هذا ما يفسر حركة التأليف الكبيرة في هذا المجال لاسيما كتب النحو واللغة والأدب بشكل عام، ومن أهم هذه الإصدارات كتاب عبد الحق الاشيلي "الحاوي في اللغة" في ثمانية عشر مجلد كاملة⁶⁸، وهو ما انعكس على جودة اللغة في المراسلات التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم والتي عرفت بالرسائل "الاخوانية" والتي كان الغرض منها تبادل النصح والمدح والدعاء وغيرها⁶⁹.

الخاتمة:

إن التصوف ظاهرة نفسية ودينية واجتماعية، عرفت طريقها إلى بلاد المغرب كحركة دينية انتشرت بعد الفتوحات الإسلامية لذلك فإن الاهتمام بموضوع التصوف ليس حديث الساعة بل تناوله العديد من المؤرخين منذ وقت مبكر من العصر الوسيط.

كما أن التصوف عرف تطور في بلاد المغرب وعبر مراحل تاريخية كبرى حتى انتهى في شكل طرق صوفية نعيشها لغاية فترتنا المعاصرة.

ومها يكن فإن الإرث الذي خلفه التصوف من شعر ونثر ومادة خبرية أعطى المجال الخصب لكافة الباحثين لرؤية التصوف من زاوية أدبية تاريخية كدراسة بينية وجب اعطاؤها حقها من الاهتمام ورفع اللثام عليها.

الهوامش:

¹ - الكلاباذي، التعريف لمذهب أهل التصوف، ط3، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1400هـ، ص ص: 50-51.

² - ابراهيم مياشي، قبسات من تاريخ الجزائر، الجزائر، دار هومة، 2010م، ص: 10.

³ - عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، آثار التصوف الغربي في الفكر الصوفي الشرقي، ط1، المغرب، دار المعرفة، 2001م، ج3 ص: 104.

⁴ - عبد العزيز، نفسه، ج3، ص: 104.

- 5- عبد المنعم القاسمي الحسني، المؤلفات الصوفية بالجزائر، ط1، بوسعادة، دار الخليل، 2005م، ص: 32.
- 6- الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7هـ/12-13 ميلاديين، نشأته، تياراته، دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي، عين مليلة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، ص: 46.
- 7- ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار الرشاد، 2009م، ج1، ص: 181.
- 8- الطاهر بونابي، نفسه، ص: 46.
- 9- محمد علي أبو ريان، الحركة الصوفية في الاسلام، ط2، دار المعرفة الجامعية، 2013م، ص: 27.
- 10- عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، المقدمة، تح: ت.م. كاترمير، طبعة باريس، بيروت، مكتبة لبنان، 1858م، ج1، ص: 295.
- 11- محمد ابراهيم تركي، التصوف الاسلامي، أصوله وتطورات، ط1، مصر، الاسكندرية، دار الوفاء، 2007م، ص: 25.
- 12- ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، المجلد الخامس، القاهرة، دار المعارف، ج28، ص: 2557.
- 13- محمد مرتضى الحسين الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط2، تح: عبد الكريم العرابوي، الكويت، 1987م، ج3، ص: 42.
- 14- ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، (د،ط)، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع، 1984م، ص: 256258.
- 15- الكلاباذي، نفسه، ص: 24-25.
- 16- الشريف الجرجاني الحنفي التعريفات، ط2، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، ص: 63.
- 17- محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، دار الغريب للطباعة، ص: 33.
- 18- الطاهر بونابي، نفسه، ص: 47.
- 19- ابي بكر عبد الله بن ابي عبد الله المالكي، رياض النفوس، ط1، نشر: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية 1951، ج1، ص: 124.
- 20- يحيى ابن محمد ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، الجزائر، مطبعة بونطانة الاخوين وشركائهما 1910م، ج1، ص: 117.
- 21- الدباغ، معالم الايمان، تح: محمد الاحمدي أبو النور، أحمد ماضي، ج2، ص: 120.
- 22- الطاهر بونابي، نفسه، ص: 88.
- 23- محمد الباهي النيبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي، تونس، مكتبة النجاح، 1384هـ/1965م، ص: 157.
- 24- الطاهر بونابي، نفسه، ص: 54.
- 25- ابي يعقوب التادلي ابن الزيات، التشوف الى رجال التصوف واخبار ابي العباس السبتي، تح: احمد التوفيق، ط2، 1997م، المغرب ن ص: ص: 88-329.
- 26- حميدي خميسي، التصوف الفلسفي في المغرب الاسلامي الوسيط - اتجاهاته ومدارسه - اعلامه، الجزائر، وزارة الثقافة، 2007م، ص: 21.
- 27- الدباغ، نفسه، ج2، ص: 137.

- 28- دبوب محمد، دور حركة صوفية المغرب الاسلامي في الحياة الثقافية والفكرية وتفاعلاتها بالشرق الإسلامي، حولية المؤرخ، العدد02، اصدار اتحاد المؤرخين الجزائريين، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر ، الايبار، 2002، ص: 103
- 29- أحمد بن أحمد ابو العباس الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ط2، تح : عادل نويصر، بيروت، لبنان ، منشورات دار الافاق الجديدة ، افريل 1997، ص: 321.
- 30- شرويك محمد الامين ،انتقال التصوف الى بلاد المغرب الاسلامي ،مجلة افاق الفكرية ،مج: 05، العدد01، 2017م، ص: 92-101.
- 31- الطاهر بونابي ، نفسه ، ص: 63.
- 32- ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة، نشر وتصحيح وطبع السيد عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الاسلامية، 1375هـ-1965م، ج2، ص: 588-591.
- 33- ابن الأبار ، نفسه ، ج2، ص : 591.
- 34- الطاهر بونابي ، نفسه ، ص: 67.
- 35- محمد عبد المنعم خفاجي ،الأدب في التراث الصوفي ،ص 181.
- 36- وضحي يونس ،القضايا النقدية في النثر الصوفي ،حتى القرن السابع الهجري ، دمشق، اتحاد الكتاب العرب، ص: 106.
- 37- علي الخطيب ، اتجاهات الادب الصوفي بين الحلاج وابن عربي ،دار المعارف،(د ط)،القاهرة ،مصر ، ص: 89.
- 38- علي الخطيب، نفسه ،ص: 247.
- 39- الطاهر بونابي ، نشأة وتطور الادب الصوفي فب المغرب الاوسط ،مجلة حوليات ،التراث، العدد02، 2004م، جامعة مستغانم ،ص: 20.
- 40- عاطف جودة ، الرمز الشعري عند الصوفية ،دار الاندلس ، الاسكندرية، ط1، 1983م، ص: 53.
- 41- ابراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر ، ط1، القاهرة، دار الامين للنشر والتوزيع، 1999م، ص: 24.
- 42- أدونيس ، زمن الشعر، ط2، بيروت، دار العودة ، 1978م، ص: 09.
- 43- عاطف جودة، نفسه، ص: 18.
- 44- عبد العزيز سيد الأهل، محي الدين بن عربي من شعره، ط1، بيروت ،لبنان، دار العلم للملايين ، أفريل 1970م، ص: 115.
- 45- الغبريني ، نفسه ، ص: 272.
- 46- أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية، (د ط)، بغداد، مكتبة المثنى ، ص: 68.
- 47- الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تر :حمادي الساحلي، بيروت، لبنان، دار الغرب الاسلامي ، 1992م، ج2، ص: 337.
- 48- ابن الابار ، التكملة ، ج2، ص: 687.
- 49- محمد دبوب، نفسه ، ص: 62.

- 50- شوقي ضيف عمر، عصر الدول والإمارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السودان، ط1، القاهرة، دار المعارف، ص: 78.
- 51- محمد دبوب، نفسه، ص: 71.
- 52- الحضرمي، السلسبيل العذب، تح: محمد الفاسي، مجلة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة، ج1، مج10، 1964م، ص: 64.
- 53- الطاهر بونابي، نشأة وتطور الأدب الصوفي، ص: 23.
- 54- الطاهر بونابي، نفسه، ص: 24.
- 55- أبي العباس أحمد الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، انس الفقير وعز الحقيير، تصحيح: أحمد الفسي، ادولف فور، سلسلة الرحلات الزيارية، الرباط، المغرب، المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة اكдал، ص: 30-90.
- 56- ابن الزيات، نفسه، ص: 227.
- 57- عبد الوهاب بن منصور، اعلام المغرب العربي، الرباط، المغرب، المطبعة الملكية، 1979م/1399هـ، ج2، ص: 16.
- 58- ابن الزيات، نفسه، ص: 58.
- 59- يحيى ابن خلدون، نفسه، ج1، ص ص: 102-103.
- 60- ابن الزيات، نفسه، ص ص: 92-93.
- 61- أبو حامد الغزالي، المنع من الضلال، طبعة القاهرة، 1316هـ، ص: 36.
- 62- الغبريني، نفسه، ص: 94.
- 63- ابن خلدون، المقدمة، ص: 486.
- 64- ابن الابار، التكملة، ج2، ص: 687.
- 65- أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عمان، عالم الكتاب الحديث، 2008م، ص: 154.
- 66- التنبكتي، كفاية المحتاج، ص: 510.
- 67- ابن الزيات، نفسه، ص ص: 412-413.
- 68- الغبريني، نفسه، ص: 74.
- 69- الطاهر بونابي، نشأة وتطور الأدب الصوفي، ص: 32.

قائمة المراجع:

1. ابراهيم حركات، المغرب عبر التاريخ، الدار البيضاء، دار الرشاد، 2009م.
2. ابراهيم محمد منصور، الشعر والتصوف الأثر الصوفي في الشعر العربي المعاصر، ط1، القاهرة، دار الامين للنشر والتوزيع، 1999م.
3. ابراهيم مذكور، المعجم الفلسفي، (د،ط)، القاهرة، الهيئة العامة لشؤون المطابع، 1984م.
4. ابراهيم مياشي، قبسات من تاريخ الجزائر، الجزائر، دار هومة، 2010م.

5. ابن الأبار ، التكملة لكتاب الصلة، نشر وتصحيح وطبع السيد عزت العطار الحسيني، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1375هـ-1965م.
6. ابن منظور، لسان العرب، طبعة جديدة محققة، المجلد الخامس، القاهرة، دار المعارف.
7. أبو حامد الغزالي، المنع من الضلال، طبعة القاهرة، 1316هـ.
8. أبو عبيد الله البكري، المغرب في ذكر بلاد إفريقية، (د ط)، بغداد، مكتبة المثنى .
9. أبي العباس أحمد الخطيب ابن قنفذ القسنطيني، انس الفقير وعز الحقير، تصحيح: أحمد الفسي، ادولف فور، سلسلة الرحلات الزيارية، الرباط، المغرب، المركز الجامعي للبحث العلمي، مطبعة اكдал.
10. أبي بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي، رياض النفوس ، ط1، نشر : حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية 1951 .
11. أبي يعقوب التادلي ابن الزيات، التشوف الى رجال التصوف واخبار أبي العباس السبتي، تح : أحمد التوفيق، ط2، 1997م، المغرب .
12. أحمد بن أحمد ابو العباس الغبريني ، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، ط2، تح : عادل نويسر، بيروت، لبنان ، منشورات دار الافاق الجديدة ، افريل 1997.
13. أدونيس ، زمن الشعر، ط2، بيروت، دار العودة ، 1978م.
14. أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عمان، عالم الكتاب الحديث، 2008م.
15. الحضرمي، السلسبيل العذب، تح : محمد الفاسي ، مجلة معهد المخططات العربية بالقاهرة ، ج1، مج10، 1964م.
16. حميدي خميسي ، التصوف الفلسفي في المغرب الاسلامي الوسيط - اتجاهاته ومدارسه - اعلامه، الجزائر، وزارة الثقافة ، 2007.
17. الدباغ ، معالم الايمان، تح : محمد الاحمدي أبو النور، أحمد ماضي.
18. دبوب محمد، دور حركة صوفية المغرب الاسلامي في الحياة الثقافية والفكرية وتفاعلاتها بالمشرق الإسلامي، حولية المؤرخ، العدد02، اصدار اتحاد المؤرخين الجزائريين، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة اول نوفمبر ، الابيار، 2002.
19. شرويك محمد الامين ،انتقال التصوف الى بلاد المغرب الاسلامي ،مجلة افاق الفكرية ،مج :05، العدد01، 2017م.
20. الشريف الجرجاني الحنفي التعريفات ، ط2، بيروت، لبنان ، دار الكتب العلمية.
21. شوقي ضيف عمر ،عصر الدول والإمارات، الجزائر، المغرب الاقصى، موريتانيا، السودان، ط1، القاهرة، دار المعارف.

22. الطاهر بونابي ، نشأة وتطور الادب الصوفي فب المغرب الاوسط ،مجلة حوليات ،التراث،العدد02 ،2004م، جامعة مستغانم .
23. الطاهر بونابي، التصوف في الجزائر خلال القرنين 6-7هجرين 12-13 ميلاديين، نشأته، تياراته، دوره الاجتماعي والثقافي والفكري والسياسي، عين مليلة، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
24. عاطف جودة ، الرمز الشعري عند الصوفية ،دار الاندلس ، الاسكندرية، ط1 ،1983م.
25. عبد الرحمان بن محمد ابن خلدون، المقدمة، تح: ت.م كاترمير، طبعة باريس، بيروت، مكتبة لبنان ، 1858م.
26. عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الاسلامي، آثار التصوف الغربي في الفكر الصوفي الشرقي ، ط 1، المغرب، دار المعرفة ، ،2001م.
27. عبد العزيز سيد الأهل، محي الدين بن عربي من شعره، ط1، بيروت ،لبنان، دار العلم للملايين ، أفريل1970م.
28. عبد المنعم القاسمي الحسني، المؤلفات الصوفية بالجزائر، ط1، بوسعادة، دار الخليل، 2005م.
29. عبد الوهاب بن منصور، اعلام المغرب العربي، الرباط ، المغرب، المطبعة الملكية ، 1979م/1399هـ.
30. علي الخطيب ، اتجاهات الادب الصوفي بين الحلاج وابن عربي ،دار المعارف،(د ط)،القاهرة، مصر .
31. الكلاباذي ، التعريف لمذهب أهل التصوف، ط3 ، القاهرة، مكتبة الكليات الأزهرية، 1400هـ.
32. محمد ابراهيم تركي، التصوف الاسلامي، أصوله وتطورات، ط1 ، مصر ، الاسكندرية، دار الوفاء، 2007م.
33. محمد الباهي النيبال، الحقيقة التاريخية للتصوف الاسلامي ، تونس، مكتبة النجاح ، 1384هـ/1965م .
34. محمد عبد المنعم خفاجي، الأدب في التراث الصوفي، دار الغريب للطباعة.
35. محمد علي أبو ريان، الحركة الصوفية في الاسلام ، ط2، دار المعرفة الجامعية، 2013م.
36. محمد مرتضى الحسين الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، ط2 ، تح :عبد الكريم العرابوي، الكويت ، 1987م.
37. الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تر :حمادي الساحلي، بيروت، لبنان، دار الغرب الاسلامي ، 1992م.
38. وضحي يونس ،القضايا النقدية في النثر الصوفي ،حتى القرن السابع الهجري ، دمشق، اتحاد الكتاب العرب.
39. يحيى ابن محمد ابن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، الجزائر، مطبعة بونطانة الاخوين وشركائهما 1910م .